شاعران كبيران يجتمعان في دمشق

أدونيس وترانسترومر في أمسية تحتفي بالشعر وتعيد الألق إلى طقس شعري غائب!

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

لعله حدث ثقافي كبير بكل المقاييس أن يجتمع شاعران كبيران في أمسية شعرية واحدة، ولئن كان المحتفى به هو الشاعر السويدي الكبير توماس ترانسترومر بمناسبة صدور ترجمة أعماله الشعرية الكاملة بتوقيع قاسم حمادي عن دار "بدايات" السورية، فان أدونيس الذي راجع الترجمة وقدم لها، خطف، بدوره، الأضواء بوصفه شاعرا قادرا على انتزاع الإعجاب.

تقاطر إلى قاعة مكتبة الأسد مساء الثاني عشر من شهر حزيران الجاري جمهور غفير، ليستمع إلى بعض من قصائد الشاعر السويدي المترجمة إلى العربية والتي قام بإلقائها، موفقا، الشاعر أدونيس الذي يعتبر بدوره، ضيفا، فعلى الرغم من كونه سوريا لكنه لا يزور دمشق إلا مرات قليلة وفي مناسبات معينة، وهو إذ يحضر يجلب معه طقسا شعريا غائبا، فهو من الشعراء القلائل الذين يستطيعون إغراء الجمهور الكسول، وجذبه إلى فضاءات الشعر رغم كل ما يقال من ان الشعر يتراجع دوره في حياتنا ولم يعد "ديوان العرب".

لكن أدونيس يثبت خطأ هذا الاعتقاد، فقد كان لحضوره الشخصي مذاق خاص أضفى على اللقاء الألفة والتقارب، رغم مسحة الحزن التي تلف ملامحه، فالشاعر ضيف في بلاده، ضيف في المدينة التي احتضنت خطواته الأولى في عالم الشعر والفكر، ضيف على أهله، ومحبيه، وأصدقائه، وقرائه.

وهو ضيف ملتبس الهوية رغم شهرته الواسعة، والتباس هذه الهوية تبلور خلال السنوات، عبر سيرته الذاتية والإبداعية، فقد ولد الشاعر في قرية قصابين التابعة لمحافظة اللاذقية السورية عام ١٩٣٠ لأسرة فلاحية، تتلمذ على يد والده، وبرع في حفظ قصائد المتنبي، والشريف الرضي، وتشرب بالتراث العربي الإسلامي في سن مبكرة .التحق بمدرسة (اللاييك) في مدينة طرطوس (الليسيه الفرنسية) بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٦ وانتسب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام ١٩٤٨ .تخرج في جامعة دمشق حائزا الإجازة في الفلسفة سنة ١٩٥٤ ، وبعد الخدمة العسكرية الإجبارية غادر سورية إلى لبنان مع زوجته خالدة سعيد سنة ١٩٥٦ عقب اغتيال العقيد عدنان المالكي، واشتداد القبضة على أعضاء الحزب الذي كان منتميا إليه لتشهد بيروت ولادته الشعرية الحقيقية حيث نشر في صحافتها، وخاض معارك فكرية كثيرة، وساهم بقوة في الحياة الثقافية في بيروت عبر مجلة "شعر" أولا، ثم اصدر بعدها مجلة "مواقف".

غادر لبنان إلى باريس سنة ١٩٨٦ ، وعمل أستاذا زائرا في جامعة السوربون، وغيرها من الجامعات الأوربية. ولمع اسمه كواحد من الشعراء الكبار إذ ترجمت أشعاره إلى مختلف اللغات الحية، وحاز الكثير من الجوائز الأدبية الرفيعة.

مهد أدونيس، قبل الإلقاء، بكلمة مؤثرة عبر فيها عن سعادته بان تترجم قصائد الشاعر السويدي أخيرا إلى العربية بعد أن ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة، وان تحتفي به دمشق مدينة الشعر والثقافة، وأضاف أدونيس محاولا تسليط الضوء على عوالم الشاعر السويدي توماس ترانسترومر، فقال "إذا كانت الصورة الشعرية فجرت الكلام فإننا نجد هذا التفجر في شعر توماس"، منوها "قلما نرى هذا الاقتران العضوي بين الكلاسيكية من جهة، والانفتاح على لغة الحداثة من جهة ثانية كما هي الحال لدى توماس".

وتابع أدونيس بان "أشياء الحياة اليومية من ابسطها إلى أكثرها تعقيدا هي مادة الشعر لدى توماس، إضافة إلى عوالم الأنا الداخلية: الشعور، المخيلة، البحث، القلق والتساؤل...يختبره ويعيد النظر فيه ويمنحه شكلا ومعنى آخر" مختتما كلامه بالقول: "يحاول توماس أن يقول في شعره وضعه الإنساني، وأن يقدم هذا الشعر بوصفه فنا يفصح عن هذا الوضع. ولئن كانت جذوره الشعرية منغرسة في أرض الشعر، في أصوله الكلاسيكية والغنائية والرمزية، فانه في الوقت نفسه ينخرط في حركة الحداثة، واقفا على عتبة المستقبل. وهو في ذلك، لا يصنف ولا يؤطر في مدرسة. إنه، في آن، واحد ومتعدد، وفي هذا ما يتيح لنا أن نرى في شعره كيف أن المرئي واللامرئي، تركيب واحد يبعث من ذات الشاعر، كأنها عطر يفوح من وردة العالم".

ويعد ترانسترومر الذي ولد في استوكهولم عام ١٩٣١ واحدا من أهم شعراء السويد والعالم، وهو مرشح منذ عشر سنوات لنيل جائزة نوبل في الآداب، درس الأدب وتاريخ الأديان. تعرض لجلطة دماغية، مطلع التسعينيات، أقعدته وأفقدته القدرة على النطق، لتقوم زوجته مونيكا ترانسترومر التي كانت حاضرة في الأمسية، بالعناية به. أصدر اثني عشر ديوانا منها "ليلاً على سفر"، و"الأسرار في الطريق"، و"الجندول الحزين"، و"حاجز الحقيقة"، و"اللغز الكبير" وسيرته الشخصية "الذكريات تراني"...

بدأت تجربته الشعرية مطلع الخمسينيات حيث اصدر أولى مجموعاته الشعرية (١٧ قصيدة) وقدم نفسه من خلالها كصوت شعري بارز إذ اعتبر النقاد ان هذه المجموعة هي من افضل المجموعات الشعرية التي صدرت في السويد خلال عقد الخمسينيات.

وراح الشاعر يحافظ على هذه المكانة ديوانا إثر ديوان، وفاز بجوائز أدبية رفيعة وكثيرة، كما نال من كلمات المديح والإطراء ما لم ينله شاعر آخر فقد وصف في مقدمة الطبعة الإنجليزية لأعماله الشعرية الصادرة في نيو جرسي بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٧ بأنه "واحد من أفضل شعراء العالم"، كما قيل عنه بأنه "واحد من الشعراء الأكثر تفردا في العالم"، وأشار بعض النقاد إلى انه "أستاذ الصورة الشعرية في الشعر السويدي". ووصفه جوزيف برودسكي الحاصل علي نوبل الأدب عام ١٩٨٧ بأنه "شاعر من الطراز الأول"، بينما يرى ديريك والكوت الفائز بنوبل الأدب عام ١٩٩٢ "إنّ على الأكاديمية السويدية أن لا تتردد في منح ترانسترومر جائزة نوبل".

معانقة الثقافات العالمية

يتميز ترانسترومر بنزعة إنسانية رفيعة، وهو لا يقف عند حدود بلده السويد بل يتطلع إلى معانقة الثقافات العالمية جميعها، بوصلته في هذا السفر هو الشعر، ففي قصيدته يخترق الحواجز ويمحو الحدود ليصل إلى حالة من الصفاء الوجداني والإنساني قل نظيره، والملاحظ. كما أشار أدونيس في كلمته . ان ترانسترومر لا يثقل قصيدته بأي منحى ايديولوجي أو سياسي، وينأى بنفسه عن الخطابة وعن أي نشاط سياسي، ذلك أن هاجسه الأوحد هو الاهتمام بجمالية قصيدته والاعتناء بالبلاغة الشعرية، دون أن يتجاهل ما يدور في العالم، فلئن ابتعد الشاعر عن اليومي والسياسي والعابر فانه غاص في أوجاع البشرية ومخاوفها وسعى، كذلك، إلى استبطان الذات وقراءة الهموم، والأوجاع، والخيبات، والتوق إلى معرفة الآخر والاقتراب منه، وسيلته في تحقيق هذا الهدف هو الشعر. يقول في حوار معه: في السويد اليوم ثمة نوع من المواجهة، ثمة ضغط من التكنولوجيا، من المتسلطين، من اللاشخصي والمنظّم والباهت، من أجهزة الكمبيوتر.هذا الضغط يجبر الناس على الدفاع عن شيء خاص، ثمين. الشعر يساعد على جعل هذا الثمين حيا".

ورغم تميز صوته الشعري غير ان الشاعر لم يتورط في الإنتاج الغزير، فرغم تجربته الشعرية التي تجاوزت النصف قرن غير ان الشاعر لم يخط سوى ٣٠٠ صفحة موزعة على اكثر من عشرة دواوين صغيرة الحجم، فالشاعر يؤمن بان قصيدة جميلة واحدة تعادل دواوين كاملة، ولذلك ركز على النوع بدلا من الكم فالقليل الجميل في رأيه أهم من الكثير الباهت، ولعل هذا الاحتفاء، والتقدير الذي يحظى به على مستوى العالم يثبت صحة رأيه.

العراق يشارك في مؤتمر وزراء الثقافة

شارك العراق ممثلاً بالسيد وزير الثقافة الاستاذ نوري الراوي في مؤتمر وزراء الثقافة في اسبانيا يومي ١١-١٢ من حزيران الحالي بحضور ٧٠ دولة و ٤٠ وزيراً للثقافة، والذي انعقد تحت شعار (ضرورة الحفاظ على التنوع الحضاري) تلبية للدعوة التي وجهها وزراء ثقافة كل من اسبانيا وفرنسا والبرازيل، كما شاركت الدول العربية إضافة إلى العراق، تونس، المغرب، فلسطين، ودولة الامارات العربية المتحدة.

افتتحت جلسات المؤتمر وزيرة الثقافة الاسبانية السيدة (كارمن كالفو) حيث تناول المؤتمر العديد من القضايا والموضوعات المطروحة على جدول الاعمال، وقد لاقت كلمة العراق التي القاها السيد وزير الثقافة اهتمام واستحسان الحضور.

وأعرب المؤتمرون عن بالغ سعادتهم لنبأ إطلاق سراح الصحفية الفرنسية (فلورانس أوبنا) التي كانت مختطفة في العراق. في الوقت الذي تقدم فيه السيد وزير الثقافة نوري الراوي بالتهاني للصحفية الفرنسية على سلامتها، معبراً سيادته عن ذلك بقوله:

" إن العراق، بلد ينشد السلام والاستقرار، ليس للعراقيين فحسب، وإنما لشعوب العالم كافة". وشجب سيادته الأعمال الإرهابية والإجرامية.

هذا وأثنت السيدة (كارمن كالفو) وزيرة الثقافة الإسبانية على دور الاستاذ نوري الراوي وزير الثقافة وجهود سيادته في تعزيز العلاقات الثقافية، والإنسانية لمصلحة الشعبين العراقي والإسباني وشعوب العالم أجمع.

وعلى هامش المؤتمر.. تلقى العراق دعوة رسمية من قبل المستشار النمساوي لزيارة النمسا يوم الأحد ١٩/حزيران الجاري، للتباحث بالقضايا والمجالات التي تهم مصلحة البلدين العراقي والنمساوي، وقد لبى السيد وزير الثقافة نوري الراوي الدعوة دعماً لآفاق التعاون الثقافي والحضاري والإنساني بين الجانبين.

صلعة الثور زنجي من كارولينا

وارد بدر السالم

بدا الزنجي ذو الرأس الكروي متوتراً وذا شهية مدمرة تفضحها عينا الثور الشبق في وجهه العريض . الثور الأسود يأخذ نصف مساحة المائدة ؛ فيما كانت امرأة بنفسجية غير واضحة المعالم تماماً ، بسبب استدارتها النصفية ، تنظر إليه بانشداه وخوف ؛ ولم يظهر منها غير خدٍ مزهر وزاوية لشفة حمراء ، لكنها لم تستطع أن تخفي امتقاعها المُلذ من هذا الثور الكاسر، كأنما تتقصد إيذاءه .

بينهما في خلفية الصالة رجل أحمر ينظر بتحفظ وفضول.عدا ذلك فإن الفضاء المتبقي مشتبك بألوان فاترة لا تفصح عن مزيد من الوجوه والحركات إلا من هؤلاء الثلاثة الذين جمعتهم أصابع لم تتقن التركيز على جماليات المكان ولا توزيع الألوان بنسب معقولة ، لذا يبدو الثلاثة يتباعدون تلقائياً ؛ يتبادلون النظرات الشبقية المنبثة من عيني الثور وهما تحمران شيئاً فشيئاً ، فيما كانت المرأة البنفسجية تلوذ بنفسها من تلك النظرات الحيوانية التي زادها شبقاً المزيدُ من كؤوس النبيذ الأمريكي الخالص. فاحتمت بتلك الاستدارة النصفية وغطت جزءاً من وجهها حروف متلاحقة ملأت الكثير من الفراغات.

صلعة الزنجي تعكس حزمة صغيرة من لون المرأة البنفسجي ، فتبدو كلطخة لم يستطع الرأس الكروي امتصاصها . كذلك انعكست على شحمة أذنه اليسرى نُضارة الرجل الأحمر ، فزينتها بخيط قرمزي قصير بدا وكأنه منبثق من جرح صغير، فيما تلألأ قرط ذهبي بعد نهاية الجرح تماماً. كان أنفه غليظاً ومنسحباً من موضعه حتى يبدو منخراه كفوهتين معتمتين ، ليترك مساحة غزيرة لشاربه ذي اللون الأسود الكاذب ، وهو ينتهي على جدار من شفتين غليظتين مهيأتين لشفط المرأة البنفسجية الحذرة.

زجاجة النبيذ الأمريكي الخالص مستدقة . وخلف الألوان الفاترة حياة محتقنة غير ملحوظة ، وبالكاد يمكن فرز رجل شرقي ينظر هو الآخر الى مشهد الشبق بانشداه ، كأنما يأسف لأيام كثيرة ضاعت منه والى الأبد في أتون حروبٍ أو مجاعات أو حصار طويل ، كما يمكن ملاحظة غلالةً من ألوان باهتة أتت على خلفية الوجوه الثلاثة وسيكون بالإمكان إزاحتها لتكشف عما وراءها من حيوات ؛ لكن وجه الثور المحتقن هيمن على نبض الحياة السرية في المكان إلا من ذاك الرجل الذي يأسف لأيامه الكثيرة الضائعة في الحروب أو غيرها وقد اخترق ستار الألوان وشارك الثلاثة في الحضور الشبقي الشهي.

هنا وهناك ثمة حروف متعرجة ، لكنها تلتحق ببعضها كأنما تؤازر الفراغات المضببة ، غير أنها ، كما يبدو، كانت من ضرورات التسجيل الواقعي لمرحلة يمكن أن تفهم بسهولة ؛ فبعد أن تلتحق الكلمات ببعضها تتشكل جمل قصيرة ، ومضاتها خاطفة ومباشرة ، تعين على تسجيل الواقعة وتنتهي الى الأسفل بتوقيع الشاعر لانجستون هيوز .

نبيذ الزنجي لا ينتهي والمرأة البنفسجية لا تزال نصف مستديرة . الأحمر يزداد تحفظاً فهو يخشى عراكاً مفاجئاً يطيح بهيبته الستينية ، لكنه يمتلئ بالفضول وقد شعَ لونه الأحمر على الحيز الذي يشغله وانعكس منه شيئ على شحمة الثور الهائج.. الثور الذي يبدو وكأنه خرج لتوه من مؤتمر" دوربان " أو غيره من المؤتمرات التي تعقد حول العنصرية وحقوق الإنسان ، ولم يستطع أن يكسب ود المؤتمرين أو يحقق لمواطنيه الزنوج أي مكسب يبعد عنهم شبح الإضطهاد والعنصرية والتهميش في دولة تصنع الاستعمار الجديد عن طريق الديموقراطيات المسلحة ومفاهيم العولمة العسكرية ؛ لذا كان مشهده المتوتر يفضح الكثير من أعماقه الملتهبة التي انصبت على تلك الكارولينية الحسناء وهي تشيح بوجهها عنه منشدهة وخائفة ، لكن رغبة ما فيها غير ملحوظة ، هي ما يراهن عليها أو يفترضها هذا الزنجي المدمّر.

عيناه قريبتان ، واسعتان ، مخيفتان ، تشكلان مع صلعته الكروية لقطة مثيرة لأسد جائع يتوثب للإنقضاض على غزالة شاردة ، وقد وصلت به درجة الإثارة الى أنه سيقفز من المائدة ليغرق في اللون البنفسجي الصارخ ويُطفئ لوعة قديمة ورثها من " روزا باركس" كحفيد شرس يسير على خطى السلف المبعثر بين الموانئ والسواحل في هجرات قسرية الى الخلاص من اللون القاتل والبشرة المحترقة وأكواخ الصفيح الساخنة ، الى فجر كاذب وأمنية لا تتحقق : أنا حفيد روزا باركس والولد المطيع لمارتن لوثر، جئت من أدغال القرود الى كارولينا فورثت الحكمة من الزنوج والقمامة والقاذورات وشبق الكلاب السائبة وباصات مونتغمري وسجون برمنغهام . أنا ثمل على مدار الحياة ، أسترجع الحكمة القديمة من سيدتي روزا وأبي لوثر. حياتي متصلة ، سلسلة معقدة من النوازع ،أريد أن أتحرر من ثقل الليلة ، أريد الثأر مني ومن مواطنتي الحسناء بطريقة ما ، سأبتلع أنوثتها الفظيعة وأصول على جسدها الطافح .سأجعل من نساء كارولينا الشقراوات مستنقعاً لرغباتي الجميلة ، وهذه البنفسجية ملاذ السهرة القائمة وفراش الجسد العطشان ، سأغني من " مارسيل شيدا " :

أيتها الأميرة السوداء
إنني أتغنى بك وبمفاتنكِ
يا آلهة الجمال الطبيعي
التي لا يدانيها أحدٌ
أما أنتِ أيها التمثال
الصغيرُ
الأبيض
يا ذات الشفاه الحمر
كلا
حقاً أن جمالكِ صناعي
صناعي للغاية..

رجل الألوان الفاترة الذي يمكن مشاهدته لمجرد التدقيق في غلالة الألوان العبثية ؛ يشارك هو الآخر في المهرجان الغريب ، ويكفي تأمله لوحده ، بعيداً عن الوجه الصاعق ، سيكون وقد ازداد اقتراباً من الآخرين ، لاسيما من الرجل الأحمر المتحفظ كل الوقت ، ينظر الى المشهد بتلقائية. لكن ترتيب الثلاثة لم يكن تلقائياً : ثمة خطأ جوهري في السهرة المرصودة ، فالرجل الشرقي يتقدم المشهد بدبيب النملة ، ليعطي لظهوره أهمية غير مرئية .

تنكشف عيناه المدورتان على نحو جلي : كل عين اكبر من بيضة حمامة تبحلق بفضاضة وقد صعد فيهما نسغٌ من الدم ، لتزداد وحشية وشراسة مع انضغاط الدم فيهما مختلطاً بوجع مضمر، يستقدم رؤى بعيدة لموانئ وسفن وزنوج قذرين مقتنصين في السواحل الغربية الأفريقية ، وتجاراً إسبانيين وبرتغاليين لا يحفظ وجوههم الحمر يوم كان مثل الخرقة المرمية على مركب العبيد المبحر إلى كارولينا في رحلة الألم الطويلة من غامبيا وغينيا وبوركينا فاسو والغابون ، لكنه كان يراهم يوم كبرت رجولته وتفتحت عينا الثور في وجهه ودماغه : كان صبياً يرتاد الشوارع ويحلم بالمقاهي والبارات الراقصة " يمنع دخول الزنوج والكلاب" ولا يدري لماذا يحولون بينه وبين تلك الأماكن المغلقة التي تزداد سرية وغموضاً في رأسه ؛ كأنما الآن ، وقد تبخر العقل خلف صلعته العملاقة ، يريد الانتفاض وهو يمسك بهذه اللحظة المتوترة والتي تزيد من ارتباك صلعته الملطخة ، حتى يمكن مشاهدة القرط الذهبي الوحيد وقد تأثر باحتقان الوجه الأسود ، فأخذ يتوتر مع الأذن الدامية..

الوقت قديم بلا شك ، والكارولييني هو من نتاج ذلك الوقت البعيد ، خارج التاريخ الاجتماعي الذي انتزعته غونداليزا رايس بجدارة لتثأر من رق الماضي وعبودية السلطة ، عندما تقدمت واثقة ، تحفها الموسيقى وثراء اللغة الذي تكتنزه والمعرفة الواسعة التي حفظتها من أبويها ، لتقف أمام القس "ثيودور هزبيرغ" كتاريخ طويل ينتصب في جامعة نوتردام وقد شخص في وجهها الزنجي كخريطة محفورة في جيناتها البعيدة ، ولتفتح أملا لمواطنيها الزنوج ؛ فأفق الحياة يتسع كلما اتسعت خطواتها الواثقة .

الريشة لا تستطيع أن تقدم أكثر مما قدمته في هذه البقعة الملتهبة غير هذه الرغوة المستحلبة في الوجه الكابوسي العنيف ، لكن جمال اللحظة المتوترة باقٍ بألقه الطبيعي الذي يستغرق كل هذا الوقت ويزيد عليه ، ورجل الألوان الفاترة يخرج من فتور لحظته الذي استحوذ عليه ويكتشف المرأة البنفسجية ، كما لو تعافى من حروبه الطويلة وخرج من حصاره الطويل ، فاختض الماء بين فخذيه . ربما وحده يستطيع أن يرى وجهها كاملاً من زاويته المحاصرة بالضباب ووحده يستطيع أن يرى قفا الزنجي العريض وتوتر رقبة الثور الغليظة، لكنه آثر أن يبقى مع الرجل الأحمر المتحفظ يراقبان هجوم الثور الوشيك.

٢١ /٤/ ٢٠٠٥ أبو ظبي